روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

Looloo
www.dvd4arab.com

الجزء الثانى

أسطورة الرجل الذئب

من إصدار
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مقدمة ..

مرة أخرى أعرفكم على نفسى : الدكتور رفعت إسماعيل أستاذ أمراض الدم سابقًا بجامعة (...) وعدد لا بأس به من جامعات أوروبا وأمريكا ، السن يناهز السبعين .. عزب ، لأن حياتى الصاخبة لم تدع لى الفرصة أبدًا كى أكون كالآخرين ..

لقد عرفت أشياء كثيرة .. فتحت تابوت الكونت (دراكيولا) .. صارعت المذءوب فى رومانيا .. بحثت عن وحش (لوخ نس) فى اسكتلندا ، قابلت رجل الثلوج الرهيب فى التبت ، ولبيت نداء النداهة فى غيطان الذرة المظلمة .. وعرفت (الزومبى) فى جامايكا .

كل هذا سأحكيه لكم بالتفصيل فى هذه السلسلة .. لكنى ـ مرة أخرى ـ أرجو من ضعاف الأعصاب ومرهفى الحس أن يمتنعوا عن القراءة ، وبذلك يوفرون على أنفسهم ساعات من التوتر والهلع وخشية الظلام ..

اليوم أحكى لكم قصتى مع أسطورة الرجل الذئب ..

★ ★ ★

١ ـ بلد الأساطير ..

نظر (أستبان) إلى ذبالة الشمعة المحترقة وإلى وجوه الجالسين حوله ثم همس :

ـ يا رفاق .. إن المذءوب هو أحد الجالسين على هذه المائدة ! ..

★ ★ ★

قبل أن نصل إلى هذا الجزء ، دعونا نعود بضع أيام إلى الوراء ، إلى زيارتى لرومانيا للمرة الأولى فى حياتى ، كنت فى السابعة والثلاثين من عمرى ، وقد مضى عامان على مغامرتى الرهيبة مع الكونت (دراكيولا) .. وكنت أعتقد ـ واهمًا كدأبى ـ أن متاعبى قد انتهت للأبد وأن الوقت قد حان كى أتزوج وأكوّن أسرة صغيرة وأفتتح عيادة نظيفة بمجرد عودتى من هذه المهمة العلمية ..

فى إحدى جامعات كلوج قابلت الصحفى الرومانى (جوستاف فيكولسكو) .. وهو شاب شديد الذكاء يتمتع بروح دعابة قوية ، ويجيد الإنجليزية كأهلها .. ومتبحر فى الأدب والعلوم الإنسانية ، وقد اعتبر نفسه مرشدًا لى فى كل خطواتى ، وعلمنى الكثير عن رومانيا البلد الذى كنت أعرف عنه أقل القليل أو لا شىء على الإطلاق ..

- ما هى الديانة هنا ؟ ..

- إن غالبية السكان هم روم أرثونكس ..

- والشيوعية ؟

ابتسم فى تحفظ .. ثم همس وهو ينظر نظرة ذات معنى :

- يا رفيق .. إن الشيوعية لن تغير رومانيا .. إن رومانيا نسيج وحدها فى أوروبا وهى لن تتبدل أبدًا .

رومانيا - كما قال لى - هى كلمة تعنى أرض روما .. لأن القائد الرومانى العظيم (ترايانو) قد فتحها وطرد البربر منها فى موقعة (داتشيا) سنة ١٠٦ ميلادية .. ومنذ ذلك الحين صارت ولاية رومانية .

ثم غزاها القوط ، ومن بعدهم السلاف ، فى القرن السادس الميلادى .

- أعتقد أن السلاف هم من أعطاها طابعها المميز ؟

- إلى حد ما ، والأهم هو أنهم قسموها إلى منطقتين : (ترانسلفانيا) و (والاشيا) ..

- ترا .. ترانسلفانيا ؟ . حيث قصر الكونت ..

- (دراكيولا) ! .. نعم ! ..إنها بلد خالد بالأساطير .. وأهم معالمه السياحية هو قصر الكونت (دراكيولا) ، يجب أن نزوره معًا .. فهو مكان مثير للخيال إلى أقصى حد !

يا لك من أحمق ! .. ماذا تعرف أنت عن هذا القصر وعن تابوت الكونت وعن خادمه .. وعن .. وعن ؟

- بل إن (ترانسلفانيا) هى أيضًا مكان قلعة (فرانكنشتاين) كما وصفتها مدام (مارى شيللى) !

- يا له من بلد جميل !

- المهم .. كنت أقول لك إن الأتراك غزوا رومانيا .. ودارت معركة كبيرة بينهم وبين (ستيفانو) الأكبر فى سهول راكوفا .. ثم تنازلت تركيا - الرجل المريض - عن أجزاء من البلاد للنمسا فى صلح (باساروفيتش) ..

- ومتى إذن صرتم أحرارا ؟ ..

- حدث هذا فى عام ١٨٥٦ .. وانتخب للحكم الأمير (ألكسندر كوز) بعد الحرب العالمية الأولى ضممنا للبلاد (بوكوفنيا) من روسيا .. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية .. استولى الجنرال (أنطونسكو) على الحكم لصالح النازى ، وكان من جراء هذا أننا فقدنا (بوكوفنيا) مرة أخرى هى وأجزاء من (ترانسلفانيا) عادت للمجر ..

بعد الحرب صرنا دولة شيوعية تابعة للاتحاد السوفيتى ..

(كان هذا الكلام فى عام ١٩٦١ ولم يكن أحدنا يتخيل ما سيحدث لرومانيا - وللشيوعية كلها - بعد ثلاثين عامًا) ..

قلت له :

- ولماذا تحبون الشيوعية ؟

- مكره أخاك لا بطل ! .. إن موسكو لا تترك لأحد فرصة الاختيار ، أضف إلى هذا أننا كنا نريد أى تغيير بعد مظالم العهد البائد ..

- هلا أعطيتنى سيجارتك أشعل بها سيجارتى ؟

قدمت له سيجارة فأخذها .. وهتف :

- أرأيت ؟ .. قبل سنة ١٩٤٧ كانت هذه جريمة يعاقب عليها كلانا بالسجن !

- أية جريمة ؟

- إشعال سيجارة من سيجارة ! .. كانت قوانين الاحتكار تحتم على المواطن استعمال عود ثقاب لهذا الغرض كى تروج تجارة الثقاب(*) !

أخذت أضحك .. فلم أتخيل من قبل هذه العبقرية فى تقييد الحرية الشخصية للإنسان ، يا للجهل البشرى !

قال جوستاف :

- سترى الكثير من الأعاجيب فى رومانيا .. عليك الآن أن تذهب لفندقك كى تستريح .. وسأراك غدًا ..

* * *

(*) حقيقة .

كانت جولة رائعة استغرقت أسبوعين ، زرنا فيها جامعات (كلوج) وكنائس (بوخارست) العتيقة .. ودخلنا حانات (مامايا) على البحر الأسود ، حيث روى لنا البحارة الأشداء قصصًا مثيرة .. وزرنا ميناء (كونستانتا) أهم موانى رومانيا ، لكن ما أثر فىّ أشد تأثير كان زيارتى (لترانسلفانيا) ..

- (ترانسلفانيا) هى حوض منخفض فى غرب البلاد تحده سلسلة جبال الألب الترانسلفانية ، وإلى الشمال تجد مراكز صناعة الصلب فى رومانيا .. ثم منطقة (الكربات) ..

- هذا الاسم مألوف لى ..

- (الكربات) هى منطقة رعوية .. جبال متوسطة الارتفاع تكسوها الحشائش ، وفى الجنوب يجرى نهر الدانوب ..

- الأزرق ؟

- لا يوجد دانوب أحمر فيما أظن ! ..

وفى تلك الليلة زرنا قصر الكونت (دراكيولا) العتيق المتهدم ، وكنت أذكر تفاصيله من الصور الفوتوغرافية فى المرة السابقة ، لم أتمالك أن أرتجف وأنا أتخيل

د . (ريتشار) و (لوفارسكى) يتسللان ليلًا لهذا القصر المتهدم كى يبحثا عن مومياء (دراكيولا) ، وتذكرت رعب أهل القرية من المرور جواره ..

إن هذا المكان ينبض بروح ما ، لا يمكن وصفها ..

قال لى (جوستاف) :

ـ إن التراث الشعبى فى رومانيا ملىء بقصص الرعب ، والأمهات هنا يخفن أطفالهن بحكايات مصاصى الدماء والمذءوبين و (نوسفراتو)(*)

ـ ولماذا فى رومانيا بالذات ؟

ـ إما أن هذا يعود لخصوبة الخيال المحلى .. وإما أن هذه المسوخ موجودة فى رومانيا بالفعل ! ..

* * *

(*) الاسم المجرى لدراكيولا ..

٢ ـ العاصفة ..

انطلقت سيارة (جوستاف) فى الطريق الوعر المتشعب والمطر ينهمر بغزارة على زجاج النافذة فى حين كان بخار الماء يتكاثف من أشداقنا على باطن الزجاج الدافئ .. فكنت أمسحه من أمامه بمنديلى من حين لآخر ..

ومن بعيد ـ عبر الغابات الكثيفة المظلمة ـ كان لسان من البرق يشق السماء من حين لآخر ليضىء الموجودات بلون أزرق بارد قاس ثم يختفى .. وبعد ثوان يدوى هزيم الرعد كأنما نجوم السماء يصطدم بعضها البعض ..

ـ إنها الكريفات ...

ـ الكريفات ؟ ..

ـ إنها ريح شتوية عاتية تجتاح هذه المناطق .. وتحدث كارثة فى المزروعات .. إنها وبال على الفلاحين هنا .

ـ يا له من فأل سيئ ! ..

ـ لا تبتئس يا رفيق .. أنت لم تر سوى رومانيا الباسمة ، وقد حان الوقت كى تراها حين تكشر عن أنيابها ! ..

كنا نجتاز دلتا الدانوب فى جنوب البلاد ، وكانت الطيور كلها قد فرّت قبل العاصفة ، ولم يبق فى الغابات المترامية

إلا بعض الذئاب تبحث عن مأوى ..

بدأ الجليد يتساقط رقيقًا ناعمًا لكنه فعّال ، فى ثوان تكتسى الغابات بلون أبيض جميل ، وكنت لم أر الجليد فى حياتى .. وقد خيل لى أننى أحلم .. فجأة يتحول المشهد إلى مسرح لقصة خرافية ما .. نعم .. لابد أن ينشط الخيال البشرى فى هذه الأصقاع ..لابد .

- رائع !

- هل تعنى أنك لم تر جليدًا قبل اليوم ؟

- نعم ..

- ألم تقل إنك زرت انجلترا وفرنسا مرارًا ؟

- بلى .. كان ذلك دائمًا فى جو صحو للأسف !

انفجر يضحك .. ثم اشعل سيجارة .. وهتف :

- إن دلتا الدانوب مليئة بالبجع والبلشون .. والدببة .. والفهود !

- فهود ؟

- طبعًا .. أنت لم تر رومانيا بعد يا صديقى .. ويبدو أنك سترى منها الكثير من الآن فصاعدًا ..

- ماذا تعنى ؟

- أعنى أننا لن نستطيع الاستمرار فى هذا الجو دون جنازير على العجلات .. يجب أن نتوقف ! ..

★ ★ ★

شرع (جوستاف) يتفحص خريطة الطرق .. ثم تمتم :

- أقرب مدينة منا هى (تورسفرين) لكنها على مسافة لا بأس بها ، إلا أن هناك قرية صغيرة اسمها (كرايوفسكا) على بعد عشر دقائق .. أعتقد أنها أملنا الوحيد .. المهم هو أن نتحرك سريعًا قبل أن يتعذر ذلك ..

وافقته على كلامه لأن دمائى الحارة القادمة من وادى النيل كانت قد بدأت تتجمد فى عروقى ، كنت أرتدى بول أوفرين ومعطفًا وتحت بنطلونى ذلك السروال القطنى السميك الذى أهدته إلىّ المرحومة أمى حين ذهبت للإسكندرية أول مرة فى حياتى ، لكنى برغم ذلك كنت أرتجف .. وبدأ أنفى يسيل .. وأدركت أننى فى حالة سيئة .. سيئة ..

أعاد (جوستاف) الخريطة إلى تابلوه العربة ، ثم أدار المحرك عدة مرات .. احتبس فيها نفسى لا أريد التفكير فيما سيحدث إذا رفضت السيارة التحرك .. ثم انطلقت السيارة ، ومضينا صامتين لا شىء حولنا سوى الأشجار المغطاة بالثلج تلتمع فى كشافات السيارة .. ومن بعيد كان ذئب أو اثنان يجريان من طريق العربة .

- (جوستاف) ؟

- هم م م ؟

ـ ماذا عن قضمة الصقيع ؟!

وقضمة الصقيع ـ إن كنت لا تعرف ـ هو نوع من الغنغرينا يصيب الأطراف فى البرد الشديد ويؤدى لبترها ، قال لى ما معناه :

ـ قال الله ولا قالك !

ـ أنا لا أمزح .. أنا لا أشعر بأصابع قدمى ! ..

ـ على كل حال ليس الطقس بهذا السوء .. لسنا فى (سيبيريا) فلا تتصرف كالأطفال ..

ظللت صامتًا وأنا ألعنه فى سرى ، وألعن دلتا الدانوب ، وهذه الكر .. الكرفات أو أيًا كان اسمها ، وشرعت أتخيل نفسى عائدًا للقاهرة دون قدمين لأتسوّل جوار مسجد الحسين ، أو أتخيل نفسى ضحية لذئاب رومانيا الشهباء التى لا تمزح .. هل سيكرمون ذكراى فى كلية الطب ويسمون دورة المياه بها على اسمى ؟ .. دورة مياه الشهيد (رفعت إسماعيل) ! ..

فى ذلك الوقت لم أكن أعرف أننى سأعيش ثلاثين عامًا أخرى سليمًا معافى ، واليوم أتذكر ، فى كل مآزق حياتى ـ وما أكثرها ـ كنت فى كل مرة أعتقد أنها الأخيرة ، لهذا لم أستمتع ولم أتعلم ..

حين تدخل أنت بيت الأشباح فى مدينة الملاهى أو فيلم رعب تكون على علم تام بأنك ـ مهما رأيت ـ ستعود

إلى بيتك سالمًا بعد هذا الفزع ، لهذا تعيش التجربة بأكملها ، أما أنا فلم أكن أعرف ..

والدرس الذى تعلمته ـ بعد سنوات طويلة ـ هو أن أفترض فى كل مأزق أننى سأخرج منه سالمًا من ثم أحتفظ بوضوح وترتيب فكرى ، إن الهلع لايجدى .. والموت هو ميعاد مكتوب لن يغيره حذرى ولارعبى ، فإذا جاء .. فلأمت كرجل مبتسمًا واثقًا ..

لكنى لم أكن أفهم هذا وقتها !..

ومن بعيد لاحت أضواء القرية .

كانت الساعة العاشرة مساءً .. والشوارع مغطاة بالثلج ، والظلام شبه تام فيما عدا بعض الأضواء خلف النوافذ المغلقة ..

وارتحفت حين تخيلت الأسرة الملتفة حول المدفأة .. والطعام ..

ـ الآن علينا أن نجد خانًا ..

وأمام لافتة خشبية يضيئها مصباح ترجّل (جوستاف) من العربة .. ثم قرع الباب بقبضة نحاسية معلقة جواره .. وصاح باللغة الرومانية بشىء ما ، فردّ عليه من الداخل صوت فظّ يقول شيئًا آخر ، حين تسمع لغة لاتفهمها يخيل إليك أن الكلمات تجرى بين شفاه أصحابها

قرع الباب بقبضة نحاسية معلقة جواره .. وصاح باللغة الرومانية

بشيء ما ..

بسرعة لايمكن متابعتها ، (جوستاف) يصرخ والصوت يصرخ .. ماذا هناك ؟

عاد إلىّ وهو يسب ويلعن - بالرومانية - بألفاظ أعتقد أنها مشينة للغاية ، ثم فتح باب السيارة وجلس جوارى .

- الخنزير لايريد أن يفتح لنا ..

- ولمه ؟

- لاأدرى .. قال إننى أستطيع أن أشكوه لمكتب الفنادق أو للحزب نفسه لكنه لن يفتح ..

- ربما يظننا لصوصًا ؟

- كلّا إن رعاة الدانوب ودودون جدًا .. ولكن هذا الرجل .. لاأفهم .. وأدار محرك السيارة ، وعدنا نجوب شوارع القرية المكسوة بالثلج صامتين .. بعد دقائق سألته :

- (جوستاف) ؟

- نعم ..

- هل الليلة مناسبة دينية عندكم ؟

- لاأعتقد .. ولماذا ؟

- لايوجد بيت فى هذه القرية إلا وغرس صليبًا حديديًا أمام بابه !.. ألم تلحظ هذا ؟!!

★ ★ ★

٣ ـ الكنيســـة ..

وصلنا للكنيسة العتيقة فى القرية .. آخر أمل لنا فى المبيت .. نزل (جوستاف) من العربة واتجه نحو باب الكنيسة الحديدى الصدئ وصفق بكفيه .. ولم يفته أن يشير لصليب حديدى مغروس فى الجليد أمام الباب .. ونظر إلىّ نظرة معناها : أنت على حق فيما لاحظت ..

بعد دقائق تحرك ضوء مصباح ، وانفتح الباب الصدئ فى حذر عن وجه ملىء بالتجاعيد ، كان هذا هو القسيس .. لحيته البيضاء ونظراته الطيبة السميكة ذكرتانى بقساوسة الروم الأرثوذكس الذين عرفتهم فى الإسكندرية ، تحدث معه (جوستاف) بكلمات مقتضبة فهز رأسه استنكارًا ودعانا للدخول ..

أغلقت خلفى باب السيارة ووثبت إلى الداخل وأنا أرتجف برداً . صعدنا سلالم متآكلة إلى غرفة واسعة رحبة .. وكانت هناك .. مدفأة ! اللهب الأحمر العزيز يتراقص مرحبًا بنا .. وكانت هناك سيدة عجوز جالسة تحيك التريكو جوار المدفأة .. قدمها لنا الأب بكلمات لم أفهمها ..

فقال (جوستاف) :

ـ الآنسة شقيقة الأب (أنطونيسكو) ..

وكانت هناك بعض كتب الصلاة على مائدة خشبية عتيقة ، وشمعدانان .. وعدة أيقونات ، كانت غرفة قديمة لكنها نظيفة مريحة و .. دافئة !

جلسنا أمام النار شاعرين أن اللهب ينفذ عبر عظامنا ليذيب النخاع بداخلها ! .. أما الأب (أنطونيسكو) فنهض إلى زجاجة صغيرة صبّ لنا منها شيئا فى قدحين من الخزف .. وقدمه (لجوستاف) ولى .. نظرت إلى (جوستاف) فى تساؤل فقال :

ـ روم ساخن ليجرى الدم فى عروقك ..

اعتذرت له وناولته الكأس ليشربها بدلًا منى فى حين شرح هو الأمر للأب :

ـ مسلم ..

قالها بالرومانية كما ننطقها نحن بالعربية .. فنظر إلى الأب فى مودة :

ـ آها ! .. مسلم ؟

ودارت محادثة قصيرة أدركت مفادها بالطبع .. من أين أتيت أنا وكيف ؟ وماذا أفعل فى هذا الركن المشئوم من العالم فى هذا الزمهرير بينما بلدي هو أجمل وأدفأ بلدان الأرض ؟! .. لو كنت أجيد الرومانية لقلت له إننى مجنون أيها الرجل الطيب .. مجنون .. ومعتوه .. وأبحث عن حتفى ..

جاء العجوز فى تؤده حاملة وعاء تفوح منه أبخرة زكية .. ورغيفين طويلين .. وطبقًا به بعض شرائح اللحم ، أشار القسيس إلى اللحم ولى وقال كلامًا ما لم احتج لمجهود كبير كى أعرف معناه ..

قال (جوستاف) :

ـ يقول لك إن هذا اللحم ..

ـ .. ضأن .. وليس لحم خنزير .. أليس كذلك ؟

ـ وكيف عرفت ؟

إن لغة الإيماءات والنظرات عالمية ياصديقى .. لو أنك شاهدت فيلمًا باللغة البنغالية لفهمت ثمانين فى المائة من قصته دون جهد ..

وعلى المائدة جلسنا نرشف الحساء الذى لاأعرف ماهو وإن كنت أميل بعد تذوقه إلى الاعتقاد أنه حساء أحذية .. وكانت تسبح فيه أشياء مرعبة لكنه كان ساخنًا وهذا يكفى !

على حين جلس (جوستاف) والقس تبادلان حديثًا لم أفهم حرفًا منه .. سيل من الشينات والخاءات ينهال فوق رأسى ويكاد يطير المائدة بما عليها .. هل اللغة الرومانية خشنة إلى هذا الحد ؟

عينا القس تتسعان خلف نظارته وهو يضغط على مخارج الحروف .. و (جوستاف) يبدو غير مصدق وإن كان قد توقف عن المضغ مما دلنى على أن الأمر أثار اهتمامه إلى حد ما ، الأب يرسم علامة الصليب ..

ـ عم تتحدثان يا (جوستاف) ؟..

نظر إلىّ فى تهكم .. ثم قال :

ـ خمّن !.. ألست خبيرًا فى الأفلام البنغالية ؟!.. الإيماءات ياصديقى .. الإيماءات !

ـ حسن .. لا تمزح !.. هناك معتقد ما يؤمن به الأب ويخشاه كثيرًا لكنك لاتصدقه .. وإن كانت القصة قد بدأت تؤثر فيك ..

ـ حسن .. أنت على حق .

ـ ولأكون أكثر دقة .. يقول لك إن الشيطان أو روح الشر ـ أو شيئا من هذا القبيل ـ يتجول فى القرية هذه الليلة المشئومة لهذا أغلق السكان بابهم وغرسوا الصلبان على الأبواب ، وإنه يسأل الرب أن يحفظنا هذه الليلة ..

نظر إلىّ فى شك .. وتساءل :

ـ قلت إنك لاتعرف حرفًا من الرومانية ؟

ـ بالفعل .. لكنها الإيماءات كما قلت لك .. ثم إن القصة هى دائمًا هكذا .. تعلمت ذلك من قصص (إدجار آلان بو)(*) !..

ـ وهل أدركت من الإيماءات أيضًا أنه مزق رجلين أمس ؟

ـ من هو ؟

ـ إنه (بيلاسكو) المذءوب .. أو بمعنى آخر ، الذئب الذى كان رجلًا ..

* * *

(*) (إدجار آلان بو) الشاعر الأمريكى العبقرى .. كتب أرق قصائد الحب مثل (أنابيل لى) وأفظع قصص الرعب مثل (قناع الموت الأحمر) و (الحشرة الذهبية) و (سقوط منزل آشر) .

٤ ـ رعب فى القرية ..

صحت فى ذهول :

ـ هل .. هل تتحدث عن أسطورة الرجل الذى يتحول إلى ذئب حين يصير القمر بدرًا ؟

قال فى تشف إذ نجح أخيرًا فى إثارة فضولى .

ـ إن رومانيا هى موطن هذه الأسطورة .. وبالتحديد سهل الدانوب ، وللمزيد من الدقة الجغرافية يبدو أن موطنها هذه القرية للأسف !

ثم ابتلع ملعقة من حسائه .. ودعانى بإشارة إلىّ أن أواصل الأكل .. لكن ما أكلته كان قد تحول فى معدتى إلى قالب من الطوب .. خرافة أخرى تلاحقنى فى هذا الركن من العالم كأنى الوحيد المؤهل لهذه المهام القذرة ..

قلت :

ـ لكن القمر كان بدرًا البارحة .. المفروض بحسب الأسطورة أن يسود الهدوء والسلام القرية بعد ليلة البدر الصاخبة ، ويعود المذءوب إنسانًا ..

تبادل بعض كلمات مع الأب (أنطونيسكو) ، ثم التفت إلىّ :

ـ ثلاثة أيام ..

ـ إذن يظل المذءوب يعيث فسادًا فى القرية ثلاثة أيام .. هذا كثير ..

وإذن فليلة باكر هى آخر ليالى هذا الشهر ..

- أظن هذا ..

وشرعت أنهى حسائى على حين استمرت المحادثة بين (جوستاف) والقس ، التفت إلىّ (جوستاف) ، قائلا :

- قلت للقس إنك لاتصدق حرفًا ..

- (جوستاف) ! إن هذا لايليق .. إن آرائى الخاصة ...

- وهو يدعوك أن تزور الحانة باكرًا لتسمع ماسيقوله الرجال هناك ..

- ولكن اعتذر له .. أنا لم أقصد .. يا لك من ...

وعادا للحديث مرة أخرى .. وسمعت كلمة (نوسفيراتو) عدة مرات .. ثم أشار إلىّ القس ضاحكًا ..

- إنه يسألك عن مغامرتك مع الكونت (دراكيولا) ..

نظرت إليه فى غيظ ، وقلت :

- قل له إننى اقتربت من القصة بشكل مروع .. لكنى حتى هذه اللحظة لست واثقًا من شىء ، قد تكون كل القصة سلسلة من الأوهام ، وقد تكون دعابة قاسية شربتها حتى الثمالة .. لكنى أعرف شيئا واحدا ..

لم أجد أى دليل مادى على أن مصاص الدماء عاش أو يعيش فى هذا العالم .. وإن موقفى من الخرافات لم ولن يتغير .. كل ما لايُرى ولايُسمع ولايُشم ولايُعقل هو غير موجود ، هذا هو رأيى فى أسطورة (دراكيولا) ..

وعادا للحديث مرة أخرى .. وسمعت كلمة (نوسفيراتو) عدة مرات ..

قال (جوستاف) مصححًا :

ـ (نوسفيراتو) !.. إنهم يفضلون هذا الاسم هنا وفى بولندا والمجر ..

ـ نعم .. هم على حق .. فهو يبدو محببًا للنفس !..

عادا يتحدثان عشر دقائق .. ثم التفت إلىّ (جوستاف) قائلًا :

ـ يقول الأب إنك مخطئ !..

بالبلاغة هذه اللغة !.. ربما استغرقت ساعتين كى أقول له كلمة مساء الخير ، تثاءبت فقال الأب شينا ماللسيدة .. فقامت على الفور تحمل مصباح الكيروسين .. واقتادتنا فى تؤدة إلى غرفة صغيرة بها فراشان نظيفان .. وقالت شينا ما هو ـ بلاشك ـ كلمة مساء الخير بالرومانية ، وعلى الفراش ارتمينا بثيابنا لأن حقائبنا كانت فى السيارة ولأن أحدنا لم يكن مستعدًا للنزول فى الصقيع والظلام كى ينعم بالنوم فى بيجامة .

... وغرقت فى نوم عميق ....

... غريب هو عواء الذئاب فى هذه القرية .. صوت قوى متحشرج أليم كأنه إنسان يتألم فى أعماق الجحيم .. أيقظنى هذا العواء ثلاث مرات بعد منتصف الليل .. فكنت أردد آية الكرسى وأعاود النوم متخيلًا ذلك الذئب البائس الذى يمشى الآن فى الظلام والثلوج ، باحثًا عن فريسة !..

فى الصباح خرجنا ـ أنا و (جوستاف) ـ نسير فى القرية ..

ـ أول شىء هو أن نجد ما يلزم للسيارة كى نواصل الرحلة .. ثانى شىء هو أن نذهب للحانة ـ كما قال الأب ـ فقد نجد شينا يهمك .. أو يهمنى أنا ..

وعند جراج القرية توجه (جوستاف) إلى رجل بدين يكسوه الشحم والعرق ويصرخ ، تحدث معه صديقى فواصل الصراخ .. ثم عاد إلىّ .. قلت باسمًا :

ـ كلهم فى هذه القرية يصرخون ويرفضون طلباتك ..

قال فى صرامة :

ـ لامجال للمزاح .. إنه يقول إن الكريفات سدّت كل الطرق بالثلوج ..

وخط التليفون الوحيد مقطوع فلم يستطيعوا استدعاء كاسحات الثلوج ..

ـ وهذا يعنى ..

ـ نعم .. بالضبط .. يعنى أننا سجناء فى هذه القرية حتى يذوب الجليد !

★ ★ ★

فى الحانة طلب (جوستاف) بعض الروم له وقهوة لى ، وجلسنا وسط بحر من الشوارب الكثة السلافية ونظرات الشك .. ورجال مفتولو العضلات زادهم الفراء

الذى يرتدونه ضخامة .. وكلهم تقريبًا مسلحون ببنادق ضخمة عتيقة ..

- كلهم هنا من الرعاة .. وحياتهم خشنة إلى حد لايوصف ، ثم يجدون أنفسهم أمام فتاتين رقيقتين مثلى ومثلك !

قالها (جوستاف) وهو يرشف قدحه فى حين انكمشت أنا فى مقعدى وسط هذا المناخ غير المرحب ، اقترب منا صاحب الحانة فأخرج (جوستاف) حفنة من اللايات(*) دسها فى قبضته .. وقال شيئا ما ، من ثم تهلل الرجال طربًا وشرعوا يحتسون الروم فى مرح مرعب ..

إنها تلك الحيلة القديمة : كل مشاريب (الجدعان) على حسابى .. من ثم تزول الكراهية والحواجز البشرية فى ثوان .. اقترب منا رجل قوى البنية وشد كرسيًا على مائدتنا وصافحنى أنا و (جوستاف) بيد كادت تهشم أصابعنا ، وقال :

- (استبان) !.. استبان هيرشوفتش ..

- (جوستاف نيكولسكو) ..

- (رفعت إسماعيل) .

سأله (جوستاف) عن شىء ما بالرومانية .. فشرع الرجل يفكر ، ثم بدأ يحكى قصة مروّعة طويلة وهو ينن

(*) اللاى : عملة رومانيا .

من حين لآخر ، ثم تهافت .. فأحاط (جوستاف) كتفه بذراعه ، وقال :

- إنه فقد صديقه أول أمس .. تذكر صديقه هذا أنه لم يغلق حظيرة الأغنام من ثم ترك زوجته وطفليه وخرج فى الظلام .. بضع ثوان لكنها كافية .. سمعت زوجته صرخة مريعة ، وحين خرجت مسلحة لترى وجدت زوجها ممزقًا على الأرض وجواره آثار أقدام ذئب ..

- والآخر ؟.

- إنه عبيط القرية (كونستانتين) ..

- وهل حدث شىء ليلة أمس ؟

- لاشىء فيما نعلم .. كنا نحن المرشحين لنيل هذا الشرف لو لم يستضفنا القس ..

صحت فى حنق :

- إذن تركنا هؤلاء الجبناء ولم يفتحوا أبوابهم بغرض ترك وجبة عشاء مضمونة للرفيق (بيلاسكو) .. ياله من ذكاء !

عاد يتحدث مع الراعى .. ثم التفت إلىّ :

- يقول إن أحدًا لم يفتح بابه لنا لأن المذعوب يستطيع الكلام بصوت البشر أحيانا مقدمًا أعذارًا مقنعة ، ومن رأيه أن الأب (أنطونيسكو) اقترف جريمة فى حق نفسه وحق أخته حين أدخلنا بيته أمس !

- هذا لطف منه !

وأفرغت فنجان القهوة فى حلقى .. ثم سألت :

- قل له من هو هذا المذءوب ؟.. هل يعرفونه ؟

- يقول إنهم لو عرفوه لقتلوه .. لكنه أحدهم بالطبع !.. ثم أنهم قتلوا مذءوبين كثيرين من قبل ..

- ماذا؟.. هل هم كثيرون ؟

- طبعًا !.. هناك دائمًا واحد .. الأسطورة تقول إن من يجرحه المذءوب يتحول لمذءوب جديد فى الشهر التالى ، كأنه وباء .. فإذا قتلت المريض الأول بقى المريض الثانى ..

- وحين تقتله يكون قد ابتلى العالم بثالث ..

- وهكذا .. سلسلة طويلة منذ القرون الوسطى إلى يوم الدينونة ..

- وكيف يقتلون المذءوب ؟..

- الأمر يقتضى إغماد نصل فضى فى قلبه بالطبع وهو فى صورته الآدمية ؛ لأنه وهو ذئب يكون فى أقوى حالاته .. يمكنه اقتلاع شجرة من جذورها بكل سهولة ..

- وكيف يعرفون وهو آدمى أنه هو المطلوب ؟

عادا يتحدثان .. وأشار (أسبتان) إلى رجل يرتدى ثيابًا قذرة وأصلع الرأس ، فجاء الرجل ، طلب منه شيئًا ما .. فأخرج الرجل من سترته لفافة وألقاها على المائدة وهو يرمقنى فى شك ..

- يقول (أسبتان) أن كل إنسان فى القرية يعرف أنه إذا هاجمه المذءوب عليه أن يحاول إحداث إصابة ما به .. فإذا نجا بعد ذلك بدأنا فى البحث عن صاحب هذه الإصابة .. ويتم إعدامه بنصل من الفضة ..

- وهذه اللفافة ؟

- هذا الرجل يُدعى (إيدو) .. هاجمه مذءوب فى الشهر الماضى بين الأحراش .

وقد استطاع أن ينتزع منه مخلبًا ثم فرّ بجلده .. فى الصباح وجد فى جيبه بدل المخلب شيئًا آخر .

- مثل .. بعض الشيكولاته مثلا ؟

فتح (أسبتان) اللفافة ببطء .. كان إصبعًا مجعدًا .. اصبعًا آدميًا يحيط به خاتم ذو فص أزرق ..

لم يحتج (إيدو) لجهد كبير فى البحث عمن فقد إصبعه فى القرية .. بل هو لم يحتج حتى إلى ترك بيته .. إن هذا الخاتم هو خاتم زوجته !!

★ ★ ★

صحت فى ذهول :

- ياللهول !

قال (جوستاف) وهو يبلع ريقه :

- هذا هو ما يقولونه .. أنا لاأصدق لكن قصتهم محبوكة إلى حد مرعب ..

قلت فى حنق :

- وطبعًا قتل زوجته بنصل فضى ..

- طبعًا ..

- وهكذا يستطيع أى سفاح أن يقتل زوجته ويقطع إصبعها ثم يخرج ليصيح فى القرية أنه اكتشف أنها مذءوبة وأنه نفذ فيها قصاص السماء !

التفت (جوستاف) بشكل تلقائى إلى الرجلين لينقل لهما وجهة نظرى ، فصرخت :

- لاياأحمق !.. لن نخرج أحياء من هنا !

فتوقف عن الكلام .. لكن الرجلين خمّنا ما قلت أو كادا .. اللعنة على لغة الإيماءات هذه !.. ولمحت نظرة غضب فى عينى (إيدو) .. وتحسّست يده القذرة نصل خنجره المعلق فى حزامه .

- أهنئك على حماسك فى الترجمة !.. حاول أن تغير الموضوع ..

وعاد (أستبان) يتحدث بصوته العميق الغليظ ، فى حين حزم (إيدو) لفافته وأعادها لجيبه وهو يرمقنى بنظرة نارية ..

قال (جوستاف) :

- منذ عام نجح (ستيفانو) فى قطع رجل مذءوب بفأسه .. فى الصباح تحولت الرجل المخلبية المشعرة إلى رجل إنسان ، وفى نفس اليوم وجدوا ابن العمدة وقد فقد ساقه فى حادث .. بالطبع نفذ أبوه الحكم بنفسه ..

- ياللبشاعة !..

- المذءوب الجديد (بيلاسكو) لم يستطع أحد حتى الآن أن يحدد هويته أو يحدث به إصابة ما ..

وفى هذه اللحظة وقعت عيناى على .. على أروع مارأيت فى حياتى !

إن الكلمات لن تنجح فى التعبير عن وقع كل هذا الجمال على روحى .. أحتاج إلى لغة أرق وأكثر جمالاً .. ربما هى الموسيقا ، فتاة سوداء العينين والشعر والملابس تقف جوار (أستبان) وتنظر إلىّ فى رقة نظرة ثابتة أذابتنى من الخجل ..

قالت (لأستبان) شيئا ما فرد عليها بفظاظة .. ياله

من و غد !.. وقال (لجوستاف) شيئا آخر وقد بدا عليه الاشمئزاز .

قال (جوستاف) :

- هى (إيكاترينا) ابنة صاحب الحانة .. قالت إنها تريد إخبارك بشىء لكن (أستبان) زجرها وقال لها إن النساء يصمتن حين يتكلم الرجال ..

- الوحش !

ثم فكرت قليلًا .. فخطرت لى فكرة .

- (جوستاف) ..قل لى .. بالطبع فى هذه الحانة مكان للمبيت .

- طبعًا ..ككل حانة قذرة فى العالم ..

- إذن قل لصاحب الحانة إننا نطمع فى المبيت عنده .

- لكن لماذا ؟.. هناك الخان .. والكنيسة ، و ...

- لا !.. أريد المبيت هنا ..

- هل سال لعابك عند رؤية أول فتاة فى القرية ؟ .. إنها ليست ....

- لم أزعم هذا لحظة .. فقط أريد أن أكون جوارها فى هذه الليلة .

ليلة مسخ الذئب ..

- يالها من رومانسية !.. كم أنتم ملتهبو العواطف يا أبناء البحر المتوسط !

ونادى صاحب الحانة وأخبره برغبتى .. فهز هذا الأخير رأسه مرحبًا .. وأشار إلىّ أن أصعد معه سلالم خشبية نخرة إلى ..إلى أقذر حجرة رأيتها فى حياتى .. منتهى البؤس والفقر والضعة .. حتى دورة المياه كانت عبارة عن جردل صدئ جوار الفراش الذى لم يكن أفضل حالًا ..

- والآن اسمع يا رفيق (رفعت) ..

- أعرف ما ستقول .. اذهب أنت ونم فى الخان أما أنا فباق !

- لقد وجدت مصيرك ! ..

قالها وهو يبصق على الأرض التىُ لم تزدها بصقته قذارة فى الواقع .. وعلى الباب استدار ليسألنى سؤالًا أخيرًا ..

- والترجمة ؟

ثم هز رأسه مستدركاً :

- آه ! .. نسيت لغة الإيماءات والنظرات !

وأغلق الباب قبل أن أرد عليه بما يناسب وقاحته !

جلست على الفراش وتأملت المكان فى اشمئزاز .. هل أنا مراهق إلى هذا الحد ؟ أم أنه حافز خفى جعلنى أفعل ما فعلت ؟..

دق الباب فوثب قلبى فى فمى .. تخيلت يدها النحيلة

الحساسة الباردة تدق الباب لتقول شيئا ما بالرومانية يقتلنى قتلًا ..

فتحت الباب ملهوفًا فوجدت صاحب الحانة البدين يضحك لى كاشفًا عن أسنانه النخرة .. أرق ابتسامة استطاع أن يرسمها على وجهه .. أعوذ بالله ! .. ناولنى منشفة ممزقة وصابونة ملوثة بالشحم ثم انحنى ليوحى إلىّ أن الخدمة ممتازة .. وانصرف !

واضح تمامًا أنه هو الذى سيرعانى فى هذه الغرفة ! ..

كانت الساعة الآن الثانية ظهرًا .. لم يكن هناك داع لإضاعة اليوم كله فى حظيرة الخنازير هذه ؛ لهذا أزمعت أن ألحق (بجوستاف) فى الحانة بالطابق السفلى كى نقرر ما نفعله بقية اليوم ..

الباب يدق ثانية .. لاشك أن الوغد سيعطينى هذه المرة فأرًا ميتًا لوجبة الغداء .. اتجهت إلى الباب وفتحته فرأيت (إيكاترينا) ! ..

ولكن قولوا لى .. هل يوجد أجمل ولا أنقى من هذا ؟

ـ جنت .. أقول ..

هل أنا أحلم أم أنها تتحدث الإنجليزية ؟ .. إنجليزية رديئة فى الواقع لكنها مفهومة ..

ـ أنت .. بالذئب .. تهتم ؟

ـ أنا نعم ..

خيل لى ـ لا أدرى لماذا ـ أنها ستفهمنى أكثر لو تحدثت بلغة إنجليزية ركيكة وهو ردّ فعل تلقائى نتخذه حتى فى العربية حين يحدثنا أحد الأجانب بلغتنا ..

ـ الذئب .. هو هنا ..

ـ أين ؟

ـ فى .. الحانة .. هذه ! ..

هل أنا أحلم أم أنها تتحدث الإنجليزية ؟.. إنجليزية رديئة فى الواقع لكنها مفهومة ..

٦ ـ من هو ؟

قالت وهى ترتجف كالورقة :

ـ أنا هاجمنى من شهر .. فى المخزن يفعل .. أنا .. أهرب .. أنا أجرح ذنب .. هو .. جرح فى رأس .

إنها قصة مشوقة ! .. إذن لقد هاجمها المذعوب الشهر الماضى وقد استطاعت أن تفرّ وأن تجرحه فى رأسه ، وهكذا حين أشرق النهار كان هناك واحد مجروح الرأس تعرفه هى .. وهو الآن يشرب الخمر فى الطابق السفلى من الحانة ! ..

ـ ومن هو ؟ ..

ـ هو .. لا أعرف .. يلبس .

ـ غطاء رأس ؟

ـ نعم .. نعم .. غطاء رأس ، (استبان) يلبس .. (ميلو إنستادت) يلبس .. (كوثار يلبس) .. (جورج) .. (ستيفانو) .. رأس

ـ هذا طبيعى يا صغيرتى ، فى هذا الطقس حتى الشيطان نفسه يلبس غطاء رأس ..

ـ لا .. لا .. هو .. هم أبدًا يخلعون لا ..

هل فهمت هذا الجزء ؟ .. إنها نقطة هامة .. من الطبيعى أن الرعاة يشربون ويسكرون ويتشاجرون ..

لكن هناك خمسة لم يحدث طيلة الشهر الماضى تحت أية ظروف أن استطاعت رؤية رءوسهم عارية ، هذا التشبث المريب بتغطية الرأس أثار شكوكها ..

فكرة ذكية .. لكن هناك حقيقة لا يجب تناسيها ألا وهى أن الفتاة مخبولة .. مخبولة تمامًا ! .. إذا تغاضينا عن جمالها وضعفها ورجفتها ..

ـ تساعدنى هل أنت ؟

ـ نعم يا صغيرتى .. أساعدك أنا سوف ! .. لكن كيف أتخلى عن قناعاتى وثقتى بالعلم لأضع ثقتى فى قصتك الملفقة عن جرح الرأس .. القصة التى ستؤدى إلى ذبح أول مسكين يتصادف أن عارضة الشباك ضربت رأسه أو قذفه طفل شقى بقالب طوب ؟

ربت على كتفها مطمئنًا .. وأوصلتها للباب فخرجت وهى ترسم علامة الصليب ..

نزلت إلى الحانة .. الطابق السفلى فوجدت (جوستاف) جالسًا على مائدة مع (استبان) وقد صار ثملًا تمامًا ، جلست على نفس المائدة ومضيت أتأمل وجوه الرجال الخشنة وهم يصخبون ويمزحون مزاحًا فظًا سمجًا كله لكمات وشتائم ، أحدهم هو المذءوب كما قالت هى .. ولكن من هو ؟ .. أى أسماء ذكرتها ؟ .. إن هذه الأسماء

لا تعلق بالذاكرة .. (جورج) قالت .. (وستيفانو) .. ثم .. ثم .. (كثار) .. كلا .. (كوثار) .. ثم (ميلو) .. بقى واحد ، (إستبان) .. بالطبع هو (إستبان) الجالس على هذه المائدة معنا .. تأملته وتأملت وجهه المشعر وهو يتحدث مع جوستاف ، مفهوم تمامًا أن تعتقد الفتاة أن هذا الرجل مذءوب .. فهو لا يحتاج لأنياب ومخالب كى يغدو مرعبًا .

ولكن كيف ولدت أسطورة المذءوب ؟ .. إن نفس النغمة تتكرر بشكل أو بآخر فى رائعة (ر . ل . ستيفنسون) (الدكتور جيكل والمستر هايد) ، الرجل الطيب الشريف الذى يتحول فى ظروف معينة إلى شيطان مفترس .. هل هى فلسفة إنسانية ما تتحدث عن أن لكل منا جانبين : أبيض وأسود ؟ !

هل هى محاولة ساذجة لتفسير حالات الانفصام التى يتحول فيها الشخص إلى نقيضه دون سبب واضح ؟! .. على كل حال فالفكرة مفزعة ولا أنكر هذا لحظة .. وأعتقد أن تحول (جوستاف) أمام عينى إلى مسخ ذئب لكفيل بجعلى أخرّ ميتًا دون أن أنطق بحرف ! ..

الساعة الآن الخامسة مساء ..

اقتربت من (جوستاف) ـ ورائحة الخمر من فمه تكاد تقتلنى ـ وقلت له :

- هل هناك طريقة ما تجعل هؤلاء الرجال يخلعون أغطية رءوسهم ؟

- ماذا ؟ !

- أريد رؤية رءوسهم عارية ! ..

- هل جننت ؟ .. أولًا قررت فجأة المبيت هنا .. والآن تريد رؤية رءوس الرعاة .. إن الصقيع ...

- لا .. لا .. لم يتجمد مخى ، أرجوك افعل شيئًا ! ..

- دعنى أفكر ..

- يمكنك مثلًا أن تدعوهم لشرب نخب ما وأن يخلعوا قبعاتهم فى صحة هذا النخب .

- هل تمزح ؟ ! .. لسنا فى ناد بلندن .. إن هؤلاء السادة أبعد ما يكونون عن الرقى ..

- إذن فلنحضر أيقونة أو شيئًا مقدسًا لنجبرهم على خلع أغطية رءوسهم تحية له ..

- إنهم لا يعرّون رءوسهم فى الكنيسة نفسها ..

- إذن ..

وهنا نهض (جوستاف) مترنحًا حاملًا الزجاجة فى يده .. وقال :

- هناك طريقة أسهل وأضمن ..

وصاح بالرومانية بشىء ما .. فتعالت صيحات

الدهشة .. ورأيت كل العيون تنظر إلىّ فى كراهية أو احتقار أو شك ! .. وصاح أحدهم مستنكرًا ..

- ماذا قلت لهم أيها المعتوه ؟

- قلت لهم ما تريد دون لف أو دوران .. قلت لهم إن السيد القادم من مصر يرغب - بعد إذنكم - فى مشاهدة رءوسكم عارية !!

- يا لك من أحمق !

لقد كان ثملًا .. ووضعنى فى موقف ليس محرجًا فقط بل هو خطر على حياتى أيضًا .. كلهم ينظرون إلىّ وقد كوروا قبضاتهم .. هناك من اعتبرها إهانة وهناك من اعتبرها حماقة وهناك من اعتبرها نزوة ، واحد فقط

- بلا شك - أدرك أننى أعرف كل شىء !

اقترب (إستبان) منى وهو يرمقنى بنظرة نارية .. ثم ضرب المائدة بقبضته ، وشرع يصرخ بكلام كثير أدركت بصعوبة أنه موجه لى ..

قال (جوستاف) :

- إنه يقول إنك رقيع وسمج وابن ...

- أنا أفهم هذا الجزء ! ..

قلتها وأنا أرتجف ..

- ويقول إنه يطلب تفسيرًا ..

ابتلعت ريقى .. وتحاشيت نظرات الرجال النارية ، وقلت :

- قل له أن يجلس لأشرح له ، بشرط أن يكون هذا دون أن يسمعنا أحد ..

نقل له (جوستاف) معنى كلماتى ، فتوقف لحظة يرمقنا فى شك وكراهية .. ثم حزم أمره .. فالتفت إلى الرجال وأمرهم بشىء ثم إنه سحب كرسيه وجلس على المائدة أمامى ..

وفى عبارات سريعة نقلت له ما قالته لى الفتاة فى غرفتى .. وقلت له إننى أشك فيه .. وإننى أطالب بكشف الأوراق قبل أن يحل الليل ..

قطّب جبينه ورشف جرعة من زجاجة (جوستاف) ثم مسح شاربيه بظهر يده المشعرة .. ومضى يحدق فى وجهى فترة ثم نهض .. وصرخ بأعلى صوته فى الرجال ..

- (ستيفانو) !!

فأتى له شاب على شىء من الوسامة يربط رأسه بمنديل قذر ..

- (كوثار) !!

نهض رجل بدين قصير القامة من مقعده وجاء لمائدتنا ..

- (ميلو إنستادت) !

فأفاق (ميلو) من إغفاءته القصيرة على مائدة البار وجاءنا وهو يصلح غطاء رأسه المصنوع من فراء الثعالب ..

- (جورج) !!

فجاء شاب ملتح يضع على رأسه غطاء من الجلود ، التفت (إستبان) إلى باقى الرجال وقال شيئا فساد التوتر .. ونهض أحدهم لكى يغلق الباب .. باب الحانة .. وبدأ الرجال الذين ناداهم يشمرون عن أذرعتهم .. فقد فهموا أنه ناداهم لكى يفتكوا بى ! وهو أمر وارد بالنسبة لى لأن كلامه الكثير بالرومانية قد يكون معناه : أن هذا السيد يقول إنكم مذعوبون فخذوا بثأركم منه !

التفت (إستبان) إلىّ وقال كلامًا ما .. ثم أشار إلى الرجال ليجلسوا حول المائدة .. ثم شرع يتكلم بصوته العميق ضاغطًا على كل حرف ..

قال (جوستاف) مترجمًا :

- إنه يحكى ما قلته أنت .. ويقول لهم يا رفاق .. إن المذعوب هو أحد الخمسة الجالسين على هذه المائدة .. إنه يدعوهم لكشف رءوسهم ويقسم إنه سيفجر رأس من لا يفعل برصاص بندقيته ..

وفى بطء واستسلام بدأ الرجال يعرّون رءوسهم ..

الصمت يسود المكان .. والحلوق جافة تترقب ما سيحدث .

تعرّت أربعة رءوس .. ثم فى حركات درامية مدّ (استبان) يده لغطاء رأسه وانتزعه ووضعه على المائدة أمامه .. لو كانت الفتاة كاذبة ـ فى موضوع الجرح ـ فسأكون فى موقف عسير ..

كانت كل الرءوس سليمة ..

رأسان فقط هما رأسا (ستيفانو) و (مليو انستادت) كان بهما جرح .. جرح قطعى طويل مغطى بخصلات الشعر ، صاح الرجال فى إثارة .. فى حين أخذ الرجلان يصيحان فى هلع بكلمات ما .. طبعًا كل منهما يشرح لهم أين وكيف أصيب بهذا الجرح .

عاد (استبان) يتكلم .. إن هذا الرجل قوى الشخصية وله نفوذ هائل فى قومه ، صيحات الموافقة تتعالى فى حين ازداد الرجلان تعاسة .. نظرت إلى (جوستاف) ـ الذى جرفته الأحداث فلم يعد يترجم ـ متسائلا ، فقال :

ـ يقول (استبان) إن الموقف صار أكثر وضوحًا .. وإننا سنجلس كلنا هنا طيلة الليل حتى يتحول أحد الرجلين إلى مذءوب .. وأن السماء هى التى ستحسم القرار ..

ـ ولكن كيف يقتل المذءوب عندئذ ؟

ـ أول علامات التحول هى احمرار حدقتى العينين .. وهو سيراقبهما كالصقر بانتظار أول بادرة من أحدهما عندئذ سيذبحه بسكين الفضة قبل أن يكتمل تحوله !

★ ★ ★

٧ ـ المقـــابلة ..

أخذت الدقائق تمضى بطيئة مملّة ونحن جالسون فى الحانة ملتفون حول (ستيفانو) (ومليو انستادت) وهما عاريا الرأس باكيان يرتجفان ..

الدقائق تمضى .. بطيئة ..

فجأة صاح أحدهم بشىء ما .. فالتفت الجميع إلى (ميلو) ..

ـ يقولون إن عينيه احمرّت !

بالفعل كانت عيناه محتقنتين بالدم .. لكن الاحمرار كان فى الملتحمة .. بياض العينين .. وهذا ـ بالطبع ـ نتيجة لكثرة البكاء مع كل الحرارة والدخان والجو الخانق المحيط به ..

ـ لكن هذه ليست حدقته .. إنها الملتحمة .

ـ وهل تتوقع من هؤلاء الرعاة معرفة الفـــارق التشريحى بين الحدقة والملتحمة ؟...

إنها عين حمراء .. وهذا يكفى ! ..

تصايح الرعاة فى حماسة وقد صرعتهم نشوة الموقف فى حين تجمّد (ميلو) فى مقعده وقد بدا عليه هلع لا يوصف .. كالفأر الذى وقع فى المصيدة ويرى ألا داعى لإضاعة لحظاته الأخيرة فى المقاومة ..

وهنا سمعت صوت زئير وحشى .. رفعت رأسى فرأيتنى أمام المذءوب !!

شعرت بالغثيان .. وبأننى على وشك إفراغ معدتى ، فتحاملت على نفسى متجهًا للباب .. نادانى (جوستاف) :

ـ ماذا هناك يا رفيق ؟

ـ قىء !..

ـ والمذءوب ؟

ـ ألستم تحتجزونه هنا ؟ ..

وفتحت الباب الخشبى .. وفى الخارج .. كان الجليد وهواء الليل البارد .. شعرت أننى أحسن حالًا ، لكن فى أعماقى كان شعور من الندم على كل هذا الذى تسببت فيه .. ربما أدت حماقتى إلى مذبحة .. لكن كان هذا هو الحل الوحيد الذى وجدته لإنقاذ حياتى أنا من المأزق الذى أدت بى إليه حماقة (جوستاف) .. وطبعًا كانت حماقة (إيكاترينا) هى التى بدأت سلسلة الحماقات هذه التى ستؤدى إلى ذبح (ميلو) أمام عينى ..

كان صخب الرجال يتعالى داخل الحانة خلف النافذة .. وكنت أدرك أن علىّ أن أجد مخرجًا ما .. ولكن ما هو ؟! .. لا أحب أن أرى إنسانًا يموت لأنه أصيب بالتهاب فى الملتحمة .. ولكن كيف أمنع ذلك ؟

وهنا سمعت صوت زئير وحشى .. رفعت رأسى فرأيتنى أمام المذءوب !!

هل سقط أحدكم فى قبضة مذءوب من قبل ؟ ! .. إن الذين عاشوا هذه التجربة يمكنهم تجاوز هذا الجزء .. أما سعداء الحظ الذين لم يحدث لهم هذا فلهم أقول إنها تجربة شنيعة ! .. أن ترى أمامك كائنًا عملاقًا يرتدى ثيابًا بشرية لكن وجهه وجه ذئب ضخم .. ويداه مخالب ذئب .. وصوته صوت ذئب .. ويقف على قدميه ، عيناه حمراوان كالدم .. وفمه مفتوح يكشف عن أنياب بيضاء لامعة .. وصدره يموج بصوت حشرجة جهنمية ، وهذا الكائن يهاجمك أنت !!

ماذا تفعل ؟ ! .. ستصرخ .. لكن أليست هذه صرخات نهاية أكثر منها صرخات استغاثة ؟ .. حاول أن تهرب فوق الجليد المنزلق لكنه حتمًا أسرع منك ، حاول أن تركله أو تضربه لكنه صلب كجدار ..

ستسقط على الأرض متكورًا وهو يجثم فوقك كالكابوس ومخالبه تمزق لحم وجهك .. وبقوة يائسة توجه له لكمة قوية فى عينه الحمراء .. فيصرخ .. وينهض من فوقك .. وفى اللحظة التالية يحيط بك الرعاة وقد خرجوا من الحانة على ضوضاء المعركة...

... ويفرّ هذا الوحش بين الثلوج ..

هذا هو بالضبط ما حدث لى ! ..

وفى داخل الحانة أجلسونى ومسحوا وجهى بخرقة مبتلة .. وقدموا لى شيئًا فى قدح شربته قبل أن أسأل ما هو ، أحاط (جوستاف) كتفى فى لهفة .. وسألنى :

- ماذا حدث ؟
- هو ! ..
- (بيلاسكو) ؟
- نعم ..
- يا للسماء ! .. إذن هو ليس (ميلو) ؟!
- وهل شككت أنت فى ذلك ؟ !
- إذن من هو ؟! ..
- لا أدرى .. لكنى لكمته لكمة رهيبة كادت تفقأ عينه اليسرى ..

استدار (جوستاف) للرعاة وشرع ينقل لهم كلامى ، بدت معالم الخلاص على وجهى الشابين المتهمين .. فى حين أخذ الكل يثرثرون فى حماسة .. غدًا بالطبع سيكون يومًا وبيلًا على كل من تلقى طوبة أو ضربة على عينه اليسرى .. لكنهم ما زالوا يرمقوننى بنظرات الشك والتحفز ، (استبان) يشير إلىّ ويقول شيئًا متشككًا .. (جوستاف) يصرخ فيه بحماسة نافيًا ذلك الشىء .. ماذا حدث ؟

- ماذا هنالك يا (جوستاف) ؟
- لا شىء .. يرون التخلص منك الآن ! ..

ـ ماذا ؟
ـ قبل أن تقتل أطفالهم ! ؟
ـ أنا .. ؟ .. كيف ؟
ـ في الشهر القادم .. حين تتحول إلى مذءوب ! ..
ـ مذءوب ؟ .. كيف ؟
نظر إلىّ نظرة ذات معنى .. وهمس :
ـ إنه جرحك في وجهك عدة جروح .. ألم تلحظ ذلك ؟!

★ ★ ★

جلست في مكاني أصغي للمناقشات والصراخ وأنا أفكر .. من الغريب أنني بالأمس في نفس الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن قصة المذءوب ، أليس غريبًا أنني قد انغمست ـ خلال أربع وعشرين ساعة ـ في المشكلة إلى حد أنني أنا نفسي في طريقي لأكون مذءوبًا ! .. يا له من تقدم !!

كنت أعرف تمامًا أن القصة لا حظ لها من الصحة .. وأن هذا الذي واجهني في الخارج هو شيء له تفسير علمي ، لكن المشكلة العاجلة الآن كانت هي مواجهة هؤلاء الحمقى المسعورين الذين لا يريدون سوى الدم ..

بصعوبة ـ رغم سكره البين ـ استطاع (جوستاف) أن ينقذ حياتي بأن أقنع الرعاة أن يتريثوا .. وأن يرفقوا بي ، مع التأكيد على أن الشهر القادم لن يشهدني في القرية

ولا في رومانيا كلها .. بل سأكون في مصر حيث أنكب وادي النيل السعيد بأسطورة الرجل الذئب .. أي أن رومانيا ستصدر عدوى المذءوب إلى إفريقيا كلها !!

تكفي هذه الإثارة لليلة واحدة ..

وفي تؤدة نهضت ، وفي خطوات ثابتة صعدت السلالم فلم يعترض طريقي أحد .. اتجهت لغرفتي القذرة .. وخلعت حذائي وارتميت فوق الفراش وأنا أشعر به يعلو ويهبط .. يا له من يوم ! .. يا له من يوم ! ..

الباب يُفتح في صرير بطيء .. فليكن هذا هو المذءوب أو الشيطان نفسه .. فلن أستطيع النهوض ولا المقاومة .. إذا كان يريد افتراسي فليفعل دون أن يوقظني .. هذا صوت (إيكاترينا) الناعم ..

ـ هل شيئًا تريد .. سيد ؟

قلت وعيناي مغمضتان :

ـ لا يا ملاكي .. لا .. شـ .. شيء .

أغلقت الباب وخرجت .. ثم فتحته وأدخلت رأسها الأسود الصغير :

ـ شكرًا .. من أجلي .. سيد ...

وخرجت ..

الفراش يموج بي .. لكم أنا مُتعب ..

★ ★ ★

نور النهار يدخل من الشباك ، أفتح عينيّ وأحرك أطرافي شاعرًا بالقوة التي منحني إياها نوم الليلة

الهادى .. لقد غسلنى هذا النوم من الداخل .. وإننى الآن لصافى الذهن إلى حد مفزع ..

نهضت إلى حوض الغسيل القذر .. وغسلت وجهى ، واختلست نظرة إلى المرآة المكسورة ، كان هناك جرحان قطعيان طويلان على خدى الأيسر ، ولكنى طبيب ولا يمكن خداعى بسهولة .. من قال إن هذين الجرحين هما آثار مخالب ذئب ؟ ..

تفتح الباب خلفى .. ورأيت الظل المحبب الذى فتننى (ايكاترينا) تحمل فى يدها صينية عليها أشياء من المفروض أنها تؤكل ، ثم وضعتها على المائدة خلفى والتفتت إلىّ دون أن ترفع وجهها ..

ـ هذا .. إفطارك هو .. سيد ..

كان شعرها الأسود منسدلاً على جبينها .. لهذا نهضت واقتربت منها وبأناملى داعبت ذقنها الصغيرة ، هتفت فى حرج باسم .

ـ أرجوك .. لا .. سيد .. أنا لست ...

أزحت الخصلة المنسدلة على جبينها .. هذا هو ما كنت أبحث عنه .. والآن يا ملاكى أنت فى مأزق مرعب ، وإنك لساذجة إذا ظننت أن انسدال شعرك يمكن أن ينقذ موقفك .

قلت فى إنجليزية رصينة وأنا أضغط على كل حرف :

ـ (ايكاترينا) ؟ ..

ـ ..... ؟

ـ ما سبب هذه الكدمة حول عينك اليسرى ؟!!

★ ★ ★

٨ .. مطاردة الذئب ..

صاحت فى ارتباك وهى تعيد الشعر لتغطى عينها :

ـ هذا .. فى باب .. ضربته .. هو فى باب ! ..

أمسكت معصمها فى حزم ونزعت خصلة الشعر ..

ـ لا ياصغيرتى .. إننى أنا الذى وجهت لك هذه الضربة أمس .. حين كنت تلعبين دور المذعوب ! .. وتكفل الظلام والرعب بجعلى أتخيل قوة غير عادية لك ..

ـ أنا .. لا أفهم .. سيد ..

ـ ثم الجروح فى وجهى .. لا يمكن أن تحدثها مخالب أى حيوان .. بل هى آثار أداة قاطعة رفيعة كنت تمسكينها فى قبضتك لتحدث تأثيرًا ..

الدموع تملأ عينيها .. وكيانها كله يرتجف .. و ...

وهنا انفتح الباب ورأيت أباها صاحب الحانة يدخل ، نظرة متشككة إلى الموقف برمته ألقاها علينا .. ثم تصلبت عيناه على وجه (ايكاترينا) .. وبالذات على .. عينها اليسرى ، ثم فجأة بدت عليه علامات الفهم ! .. أشار إليها وهتف شيئا ما .. ثم إنه اندفع خارج الحجرة وهو يردد نفس العبارة مرارًا .. لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كى يعرف أنه يقول : المذعوب هو ابنتى .. المذعوب هو ابنتى !!

التفت، إليها وصحت :

ـ أرجوك ! .. لا وقت للتفسير ! .. اهربى الآن ! ..

ـ لكن ..

ـ اهربى ! .. إن هؤلاء الأوغاد متعطشون للدماء ، وستكون أسعد لحظة فى حياة أبيك هى عندما تتاح له الفرصة للتضحية بك لإثبات ولائه للجماعة ! ..

ـ لكن ...

ـ لن يفهموا شيئا عن مرضك النفسى .. وسيلقون بك أرضا ويقتلونك بسكين من الفضة .

ـ لكن ..

ـ هيا .. اذهبى إلى الأب (أنطونيسكو) فى الكنيسة واطلبى اللجوء .. واعترفى له بكل شىء .. أما أنا فسأحاول أن أنقذ الموقف ، سأشرح لهم .

وهنا تعالى صوت الرجال فى الطابق السفلى .. صيحات الغضب والثورة ، إنهم قادمون فقد ناداهم المخبول ، فى سرعة ودون تردد أمسكت يدى (ايكاترينا) وفتحت الشباك ـ برغم الثلوج المحيطة به ـ وفى رفق ساعدتها على الانزلاق على طبقة الجليد العالية تحت النافذة .. ثم أشرت إليها أن تجرى .. نظرت إلىّ لحظة فى تردد .. ثم أطلقت ساقيها للريح ..

ودخل الرجال الحجرة وقد بدا الشر فى عيونهم ، وقالوا ما معناه « أين هى » بالرومانيـــة ؟ فأشرت للنافذة ، عندئذ أسرعوا بالنزول على السلالم لملاحقتها ولم يفت (استبان) ـ بالطبع ـ أن يفتش الحجرة عدة مرات قبل أن يصدق إشارتى ، ثم نظر إلىّ نظرة شك .. ولحق بالرجال .

وجدت نفسى وحيدًا فى الغرفة وربما فى الحانة كلها ..

فتحت الباب .. وتفقدت المكان حولى .. كانت هناك حجرتان فى نفس الطابق كلتاهما مغلقة الباب ، سرت فى تؤده إلى الباب الأول وعالجت مقبض الباب الصدئ .. فوجدتنى فى غرفة صغيرة نظيفة نسبيًا .. على الفراش قطعة من نسيج الكانافاه لم تتم .. وعلى المائدة فى وسط الغرفة زهرية ورد رقيقة بها زهور ذابلة لا أعرف اسمها ، كل شىء يدل على أنها غرفة أنثى .. (إيكاترينا) على وجه الخصوص .. ثيابها ملقاة فى إهمال على كرسى خشبى جوار الفراش .. ثم ديوان شعر مكتوب بحروف سلافية لا تعرف حتى الوضع الصحيح للإمساك به .

كان تصرفى وقحًا وطفيليًا لكنى كنت أريد أن أعرف .. لهذا مددت يدى المرتجفة الباردة إلى حشية الفراش وقلبتها .

كان هناك كيس قماش كبير مربوط بعناية ، فتحته

ومددت يدى فيه فشعرت بشىء كالفراء وأشياء كقطع بلاستك مدببة ، قلبت الكيس على الفراش فوجدت ما توقعته ..

هناك ـ على الفراش ـ ارتمى رأس المذءوب الذى هاجمنى أمس .. قناع مصنوع بإتقان غير عادى يكسوه الفراء .. والعينان حمراوان مضيئتان لكنهما تسمحان للابس القناع أن يرى من خلفهما ، وكان الفك السفلى المليء بالأنياب متحركا ، تحفة فنية حقيقية ..

وجوار القناع كان قفازان من الفراء مزودان بالمخالب ، ثم شىء يشبه حزام النجاة فى السفن والطائرات .. عبارة عن أداة لتضخيم حجم الصدر والأكتاف حين تلبس تحت الثياب ..

ثم ـ والأهم ـ أداة قاطعة دقيقة ، ومجموعة سكاكين مختلفة الأحجام يمكنها تمزيق فيل ....

وأخيرا صورة شمسية صغيرة لشاب وسيم حليق الوجه يبتسم فى بلاهة .

الآن أفهم كل شىء .. (إيكاترينا) هى (بيلاسكو) المذءوب الذى دوخ القرية وأفزع رجالها حتى الموت .

هى أعدت هذه الثياب المتقنة لنفسها .. وشرعت تخرج فى كل ليلة مقمرة بحثا عن التعس الذى يوقعه حظه العاثر

هناك ـ على الفراش ـ ارتمى رأس المذءوب الذى هاجمنى أمس .. قناع مصنوع بإتقان .

فى قبضتها ، ومع كل الرعب والمفاجأة لم يكن أى واحد على استعداد للدفاع عن نفسه .. لم يحاول أى واحد على الإطلاق أن يفعل .. وفى الظلام كانت تمزقه بالسكاكين التى تخفيها معها .. ثم تفرّ وتعود لدورها الأصلى .. ابنة صاحب الحانة الرقيقة ، ومن حين لآخر تخبر المغفلين أمثالى بقصة المذعوب مجروح الرأس .

ولكن لماذا تفعل ذلك ؟ .. لماذا ؟ ..

★ ★ ★

ـ د . (رفعت) !

هذا صوت (جوستاف) يناديني .. لقد استيقظ الآن فقط من نومه بعد إجهاد السُكر ليلة أمس ، وقد بحث عنى فى الحانة فلم يجد لى أثرًا ولم يجد أحدًا يسأله .

ـ هذا أنا يا (جوستاف) .. أنا هنا ..

صعد إلىّ فى الطابق العلوى حيث وقفت فى غرفة (إيكاترينا) .. وعلى الفراش وجد ثياب المذعوب ، فصاح فى غباء :

ـ هل .. هل قتلته ؟ وسلخته أيضًا ؟

ـ يا لك من معتوه !

وفى كلمات سريعة شرحت له كل شىء ..

ـ والعمل ؟

ـ أول شىء .. سنذهب للكنيسة لنواجهها بما نعرف ..

ـ ثم ؟

ـ ثم نتدبّر إخفاء الأمر أو إعلانه حسب ما يكون تفسيرها .. قد تكون قاتلة تستحق الإعدام وقد تكون مريضة انفصام تستحق العلاج ، لكن مهما كان لن نترك الأمر للعدالة الجماعية فى هذه القرية المنكودة .. يجب الذهاب بها إلى (بوخارست) بأى ثمن .

★ ★ ★

فى الكنيسة قابلنا الأب (أنطونيسكو) .. سألته همسًا عن الفتاة فقال لى إنها لم تأت .. أقسمت له إننا لن نؤذيها .. فاحتدّ غضبًا مؤكدًا أنه لا يكذب ..

إذن أين ذهبت هذه التعسة ؟ .. وهل نجح الرعاة فى الإمساك بها قبل أن أتمكن من .. علينا الآن أن نبحث عنها .

وهنا تذكرت شيئًا فأخرجت صورة الشاب الوسيم التى كانت فى حجرتها .. وقربتها من نظارة القس .

ـ هل تعرف هذا الشاب يا أبت ؟

لم يعط القس فرصة الترجمة (لجوستاف) لأنه قرّب أنفه من الصورة .. وهتف :

ـ آه ! .. (ميخائيلسكو) !

ثم قال بضع كلمات أخرى .. ورسم علامة الصليب .. قال (جوستاف) :

ـ يقول إن اسمه (ميخائيلسكو) ..

ـ هذا واضح ! .. أنا لست حمارًا على كل حال ..

ـ وأنه ابن العمدة .. كان مذءوبًا وهاجم (ستيفانو) ، لكن (ستيفانو) أطاح بساقه بالفأس ، وفى الصباح بدت قصة عن ظروف بتر رجله ملفقة وسخيفة لهذا أدركوا أنه المذءوب .. وقتلوه !..

ـ وبالطبع هذا الفتى كان يحبّ (إيكاترينا) ؟

دارت محادثة سريعة بينهما أدركت من خلالها أن الإجابة نعم .. إذن هذه هى القصة .. قصة حب عنيفة بين الشابين مرهفى الحس ..ثم تفقد الفتاة حبيبها نتيجة خرافة أو قصة مغرضة صاحبها (ستيفانو) ، لهذا تصمم أن تنتقم وأن تحيل لياليهم المقمرة إلى جحيم .. كأنها قالت : حسن .. أردتم مذءوبًا فلكم هذا !! ، وشرعت فى كل شهر تقتل أحد الذين كانوا مسئولين عن موت حبيبها ، ثم اختارت ميتة بشعة لـ(ستيفانو) عن طريقى أنا .

كانت تعرف أن رأسه مجروح لهذا أدركت أن اختيار ليلة الأمس سيؤدى لقتله كما مات حبيبها ، ولما سارت الرياح لاكما تشتهى هى .. وكاد (ميلو) يفقد حياته ، ارتدت ثياب المذءوب وانتظرت كى تهاجم أول من يغادر الحانة .. وكنت أنا بلا فخر !..

ـ ما التفسير الذى قدمه (ميخائيلسكو) لفقد ساقه ؟

ـ قال لهم إنه فقد وعيه ليلًا فى أثناء سيره فى الغابة .. وحين أفاق لم يجد ساقه .. ووجد الجرح مربوطًا ببراعة كى لاينزف ، من ثم جرّ نفسه إلى داره .. وارتمى فوق فراشه مغشيًا عليه حتى أيقظوه صباحًا ليتهموه بأنه مذءوب !

قصة غريبة صعبة التصديق ، لكن إذا تخيلنا ـ بشىء من التمادى ـ أن (ستيفانو) كان يحب (إيكاترينا) هو أيضًا .. يمكننا أن نكمل القصة .. كان يستطيع أن يضرب الفتى فى أثناء سيره فى الغابة ، ويقطع ساقه بالفأس .. ويضمدها .. ثم يجرى للقرية ليعلن قصته المزيفة عن المذءوب ، وبهذا يتخلص من منافسه بطريقة نظيفة وبحكم إعدام جماعى .

لكن (إيكاترينا) كانت هناك ، وقد قررت أن تكافئ القرية بمذءوب حقيقى !

★ ★ ★

آخر سؤال وجهته للقس قبل أن ننهى حديثنا كان :

ـ كيف بدأت قصة المذءوب فى القرية ؟

نقل له (جوستاف) سؤالى ، فهز رأسه فى إرهاق .. وابتسم وشرع يتكلم .. قال (جوستاف) :

- يقول إن هذا حدث من قرون ، منذ عهود القرون الوسطى ، عائلة (سخاروزان) الإقطاعية كانت تحكم البلاد بالحديد والنار .. لكن اللعنة أصابت نسلهم .. كان أطفالهم يولدون مذءوبين .. وكان المرض يبدأ باسوداد لون البول ومغص فى بطونهم .. ثم يتحولون لمسوخ ذئاب .

بول أسود ومغص ؟.. مسوخ ذئاب ؟.. إن هذا يذكرنى بشىء ما .. نعم .. هو كذا .. صحت بـ(جوستاف) :

- إن القصة كانت هكذا .. لكن الحقيقة أنهم كانوا مرضى بمرض له أسباب علمية وعلاج .. هذا المرض أسماه القدامى (مرض الرجل الذئب) .. اما اسمه العلمى فهو (بورفيريا) .

هذا المرض ناجم عن اختلال تمثيل الحديد فى الجسم .. من ثم تحدث أعراض عديدة منها المغص والبول الأسود ، وفى حالات نادرة تستطيل الأظفار وتبرز الأنياب ويتجعد الجلد ، تصير الحواجب كثيفة والشفاه مشقّقة والعينان حمراوين .. ثم يتجنب المريض الشمس لأنه لا يتحملها(*) !!..

- باختصار يتحوّل إلى ....

(*) حقيقة .

- يتحول إلى ذئب بشرى ! .. وبمرور الوقت تُولد الأسطورة .. وتعيش فى النفوس ، ويستغلّها بعضهم لقتل زوجته أو منافسه فى الحبّ ، أبدًا لم يوجد على الأرض رجال ذئاب .

هتف (جوستاف) فى جزع :

- رائع ! .. ولكن هلا اختصرت هذه المحاضرة العلمية إلى أن ننقذ الفتاة ؟

يا الله ! .. لقد نسيتها تمامًا .. غمرتنى نشوة أن أجد تفسيرًا هذه المرة لهذا اللغز من ألغاز التاريخ ، وللحظة ظننت أننى خليط من (شيرلوك هولمز) و (لوى باستير) .. وفاتنى تمامًا أن الوقت غير مناسب لهذا ..

- فلنسرع ! .. واشكر لنا الأب (أنطونيسكو) بشدة ! ..

* * *

عند المقابر وجدناهم .. الدماء تلطخ الجليد الأبيض .. وهم جميعًا واقفون فى صمت وقد نكسوا رءوسهم .

على الثلوج كانت ممدّدة وشعرها الأسود الجميل ينتشر حولها ملطخًا بالدم والثلج .. وفى صدرها كان نصل طويل غائصًا إلى نصفه .. نصل من الفضة .. فى حين وقف قاتلوها حولها يلهثون فى إعياء .

لقد تأخرنا كثيرًا .. كثيرًا جدًا .

على الثلوج كانت ممددة وشعرها الأسود الجميل ينتشر حولها ملطخًا بالدم والثلج ..

وعلى قدميها ارتمى أحدهم يبكى ويغسلها بدموعه ، كان عارى الرأس وفى فروة رأسه جرح قطعى طويل .. لقد فقد (ستيفانو) حبيبته الرقيقة أمام عينيه وهو الذى فعل كل الفظائع التى فعلها لتكون له وحده .. لكنى لا أشعر بأى نوع من الرثاء له .

أخذ (جوستاف) ينشج فى صمت ، وسالت دمعتان دافئتان على خدى سرعان ماتحولتا إلى ندفتين من الثلج جوار فمى .

ودون كلمة أخرى تأبط (جوستاف) ذراعى وأخذنى بعيدًا عن هذا المشهد المروع .

لقد انتهت أسطورة الرجل الذئب .. انتهت للأبد ، لكنى لست فخورًا على الإطلاق بدورى فيها .. لست فخورًا على الإطلاق .

والشمس تغرب فوق المقابر فى سكون .

★ ★ ★

٩ ـ الخـاتمـة ..

فى مطار (بوخارست) صافحت (جوستاف) وشكرته على كل شىء ، ثم إننى طلبت منه أن يكتب لى باستمرار .

تحسس الجرح الذى فى وجهى وهتف باسمًا :

ـ إذا تحولت إلى مذءوب يوم الخميس القادم لا تنس أن تكتب لى ! ..

لم أبتسم .. وقلت فى كآبة :

ـ أرجوك ألا تعود لهذا فى خطاباتك ! ..

ـ أوه ! .. لننس الماضى ..

أشعلت سيجارة .. وتأملت المسافرين المتجهين لصالة الجوازات .. وسألت :

ـ هل نشرت القصة ؟

ـ لا ..

ـ ولمه ؟ .. إنها مثيرة برغم كل شىء ..

ـ المكتب الثقافى فى الحزب ..

وتلفت حوله فى حذر ليتأكد أن أحدًا لا يسمعه .. ثم أردف :

ـ قالوا إن قصتى خيالية .. و .. رجعية .. ولا تخدم أيديولوجية الحزب .. ثم إنها تتهم رعاة الجنوب بالتخلف !!

ـ ربما كان هذا أفضل ..

وصافحته للمرة الأخيرة .. واتجهت لصالة الجوازات ، ناداني فى لهفة صائحًا :

ـ حاول أن تعود لرومانيا قريبًا .. تنتظرك أشياء رائعة فى قلعة الدكتور (فرانكنشتاين) !

ـ لا مفر من ذلك ! .. لكنى سأتعلم اللغة الرومانية أولًا ..

ـ وداعًا .. يا رفيق ، تحياتى لأبى الهول !

ـ وداعًا ! ..

وأقلعت الطائرة ..

كنت أظن أننى عائد إلى عالمى الهادئ الناعم ، ولم أكن أعرف أننى سأواجه كابوسًا جديدًا فى قريتى الصغيرة و .... لكن هذه قصة أخرى ..

د . رفعت إسماعيل ـ القاهرة ١٩٩٢

★★★

[تمت بحمد الله]